٥ ـ بين المعرى ودانتى

فى رسالة الغفران والكوميدية المقدسة

بقلم محمود احمد النشوى

لقد وعدنا فى العدد الماضى أن نذكر أحراس الجحيم من الشياطين فى خيال دانتى . وفى الحق انه افتن فى وصفهم وجعل منهم أولى أذناب يطوقون بها المعذبين مثنى وثلاث ورباع . وآخرين فى صورة كلاب تعددت رءوسها وأفواهها . وجعل منهم من يصرخ ويصيح بأصوات تنبو عن جرسه الاسماع ..

جمهرة من المردة استغل الشاعر مواهبه الى أقصى حدودها فى وصفهم محتفلا بذلك الوصف حتى جعل لهم مدينة تخصهم لا يلجها سواهم

فى بعض طبقات الجحيم ، وعلى ضفاف نهر اكروتى Achronte يقف الشيطان كارونتى Caronte بزورقه ينقل فيه المعذبين من مكان الى مكان ضاربا بمجدافه كل من أبطأ به ضعفه أو تمرده . وفى بعض جنباتها يرى الشيطان شربيرو Cerbero فى زى كلب ضخمت جثته ، وتعددت رءوسه وأفواهه ترسل الصراخ والنباح عاليا تنكره الآذان . . وفى بعض نواحيها يرى الشيطان بلوطو Pluto ملحا فى هذيانه بصوته الذى لا تبين نبراته . ويبعث رنينه فى القلوب الفزع والرعب والهلع .

ثم يحدثنا مرة أخرى عن شيطان له زورق يعبر عليه أهل النار بركة سوداء قاتمة يتقلب فى أوحالها وأقذارها المتكبرون والحاسدون . ذلك الشيطان هو فليجياس Flegias . كما حدثنا عن الشيطان مينوتاورو Minotauro الذى تراءى فى ظلمات الجحيم متخذا هيئة ملفقة من الانسانية والحيوانية ، نصفه ثور ونصفه آدمى الى كثير من زبانية ومن شياطين افتن شاعر الطليان فى وصفها افتنانا جعله يخصها بمدينة (ديتى Dite) . تلك التى اشرف دانتى منها على أبراج وقباب يلفحها لهب الجحيم . وينعكس عليها ضوء النيران . ولم يكد يخطو نحوها يريد اختراقها حتى اعترضه ألف من الزبانية يحتجون على دخوله مدينتهم واختراقه حرمتهم . ولقد كانت الشياطين كلما اعترضته فى طريقه أو ارادت إلحاق الاذى به هرع إليه فرجيل فاستنصر به ، فاقنعها فرجيل بالارادة السماوية التى تأمره بالمسير فخلت له السبيل . بيد ان المردة من (ديتى) أبوا إلا إعراضا وعصيانا فأغلقوا من دونه أبوابهم ، فوقف الشاعر مشدوها يعجب لمئات الشياطين من حوله . ولئلاث من إناث الجن وقفن فوق أكبر البروج مولولات صائحات . وليس خضابهن الحناء بل يصطبغن بالدماء . وتدور على أوساطهن الثعابين ، وتتسدل على أعناقهن ورؤوسهن الأفاعى مكان الشعر متكاثفة يركم بعضها بعضا . ولا زال دانتى تحيط به المرعبات من كل الجوانب حتى جاءه ملك كريم أهوى نحو الشياطين بعصاه ففتحت له أبوابها . واخترقها دانتى ذاهبا لطيته ، واستكمالا لرحلته ، بين حراس الجحيم وعذاب العاصين مسهبا فى الحديث عنهم . بينا المعرى لم يسهب فى وصفهم فلم يكن له غرض فى ذلك بله الافتنان فيه ، فهو لم يرد ذكر العصاة والمجرمين يصف للناس عذابهم عظة وذكرى حتى يفتن فى وصف ذلك العذاب . وفى وصف الزبانية والاحراس الموكلين بالعذاب ، وإنما هو رجل لغة وأدب وشعر . يتلمس الطرق الشائقة ليبرزها طريفة محببة للنفوس . فلم يعرض لخزنة النيران الا قليلا . على حين انك ترى دانتى همه وصف المجرمين والخائنين : خائنى أوطانهم واخوانهم وأهليهم ، معملا خياله فى وصف المعذبين ، وفى وصف الموكلين بعذابهم حتى ينفر الناس من الخطيئة ، ويتجافوا عن المعصية .

ابليس فى الروايتين

ذكر الجحيم يتبع ذكر إبليس . وابليس رمز الشر حتى عند عبدة الشيطان ، فهم يعبدونه اتقاء لشره . فتحدث عنه المعرى ولم يغفل دانتى ذكره . وكلاهما صوره فى آلامه واوصابه . وفى عذابه وما يلاقيه . بيد أنك اذ تقرأ وصف المعرى له تغرق فى الضحك وتعلم أى سخرية بلغها أبو العلاء . وأى دعابة أغرق فيها رهين المحبسين . وتعلم من بعد ذلك أن صاحب رسالة الغفران هو أشد كتاب العربية جرأة على ما لم يجترئ عليه أحد غيره .

وسأنقل اليك ماذكره عن ابليس متدرعا بالشجاعة أنا الآخر حتى فى النقل ، ولولا أن واجب الموازنة يضطرنى للنقل . ولولا أن حاكى الخبر ليس بمسئول عنه ، لتنزيت صفحا عما سطره المعرى عن ابليس . فقد ذكره وهو يحاور ابن القارح يسائله عن صناعته

ويذم له حرفة الأدب . ويسأله عن أعمى البصرة بشار بن برد ذى اليد عليه كما يقول حين فضله على آدم . ثم يستفتيه فى تحريم وتحليل . . وفى احكام فقه ودين . . .

. . فدونك ذلك القصص أكتبه ، وأترك للقارىء تفهم ماتحدث به المعرى فى خلاله . قال المعرى محدثا عن ابن القارح (ثم يطلع على أهل النار فيرى ابليس لعنه الله وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، فيقول الحمد لله الذى أمكن منك ياعدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها الا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان ابن فلان من أهل حلب . كانت صناعتى الأدب أتقرب به الى الملوك ، فيقول بئست الصناعة انها تهب غفة (١) من العيش لا يتسع بها العيال ، وانها لمزلة القدم وكم أهلكت مثلك ، فهنيئا لك إذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى ، وان لى اليك لحاجة فان قضيتها شكرتك يدالمنون ، فيقول : انى لا أقدر لك على نفع ، فان الآية سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) فيقول : انى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكن أسألك عن خبر تخبرنيه ، ان الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات ؟ فيقول : عليك البهلة ، أما شغلك ما أنت فيه ؟ ! أما سمعت قوله تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) . . ؟

فيقول : وان فى الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر فما فعل بشار ابن برد ؟ فان له عندى يداً ليست لغيره من ولد آدم ، كان يفضلنى دون الشعراء ، وهو القائل

ابليس أفضل من ابيكم آدم ... فتبينوا يامعشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة ... والطين لايسمو سمو النار

لقد قال الحق : ولم يزل قائله من الممقوتين)

فى تلك الصورة الهازئة الساخرة يرسم لنا المعرى ابليس تضربه المقامع . ويضطرب فى الاغلال . وهو لاينى يسأل ابن القارح تلك الاسئلة السفسطية من ناحية ، البذيئة من ناحية أخرى .

ولكن المعرى جمح به خياله فى تلك النوبة فتكشف عما ترى وداتنى بماذا وصف ابليس ؟ وماذا تخير له من طبقات الجحيم ؟ وعماذا سأله ؟

لقد تخيله تعصف به الثلوج فى ظلمات السعير . ويهلكه الزمهرير فى الهاوية . وهو فيما بين الثلوج والعواصف كطاحونة الهواء تقلبه الرياح كيفما أرادت

ثم اختار له الدرك التاسع من جهنم وهو اسفل طبقاتها وأشدها هولا وبلاء .

ولم يسأله فى الادب ، ولا عن أحد الشعراء . ولا عن أحكام تحليل وتحريم . ولم يكن له سعة اطلاع المعرى حتى يدخل فى نحو ذلك النقاش . بل انساق يعلل ما أحاط به من عذاب اليم بأنه كان ملكا صوره ربه فأحسن صورته ، وأعطاه جمالا يفرع فيه كل مخلوق ، بيد أن نفسه المليئة شرا وخبثا جعلته يسرف فى الغرور حتى تمرد على ربه فطرده من جنته ، وبقى طيلة عمره مذموما مدحورا ، وله فى الآخرة عذاب شديد .

يتبع

محمود احمد النشوى

(١) بلغة يسيرة

كتاب

أبو على عامل أرتست

مجموعة من القصص المصرية العصرية

تأليف

الاستاذ محمود تيمور

يطلب من مكاتب القطر الشهيرة وثمنه خمسة قروش خلاف أجرة البريد